PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 1135-1155
ISSN: 1553 6939

Obsession with Identity Stasis in Mohammed Berrada's Novel "*Far from the Noise, Close to Silence*"

Dr. Selaimia yamina[1], Dr. Boubasla khaoula [2]

[1] University Badji Mokhtar Annaba, slaimia.yamina@gmail.com

[2] University Badji Mokhtar Annaba, boubakhaoula88@gmail.com

Received: 26/03/2024 **Accepted: 20/07/2024** **Published: 05/09/2024**

Abstract:

The adherence to identity is an inherent human instinct and manifests as an expression of existential angst, influenced by a variety of external factors; these may encompass fears of historical displacement, cultural estrangement, or religious oppression. Consequently, the ongoing discourse on identity has unearthed two profoundly contradictory viewpoints: one that champions the preservation of cultural roots as a safeguard for continuity, and another that advocates for a receptivity to external influences.

Numerous Arab literary works have engaged with this theme, meticulously unpacking its layers. Among these is "*Far from the Noise, Close to Silence*" by Mohamed Berrada. In this novel, Berrada employs a nuanced narrative approach to deeply investigate this theme through his characters, who expose the shadowed recesses of the human psyche grappling with identity concerns. The narrative artfully illustrates the internal conflict between assimilating into an alien cultural milieu and steadfastly maintaining one's ancestral heritage.

Keywords: Identity, Novel, Post-colonialism, Self, Other.

PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 1135-1155
ISSN: 1553 6939

هاجس الانحباس الهوياتي في رواية "بعيدا من الضوضاء، قريبا من السُكات" لمحمد برادة

د. سلايمية يمينة[1]، د. بوبصلة خولة[2]

[1] جامعة باجي مختار عنابة، slaimia.yamina@gmail.com

[2] جامعة باجي مختار عنابة، boubakhaoula88@gmail.com

ملخـــص:

إنَّ التمسك بالهوية هو فطرة إنسانية وتعبير عن قلق وجودي تمليه دوافع خارجية مختلفة؛ قد تكون الخوف من الاقتلاع التاريخي أو الاستلاب الثقافي أو الاضطهادات الدينية وعليه فإنَّ الجدل الموصول بمسألة الهوية قد أثيرت فيه مسألتان متباينتان حد التناقض واحدة تدعو إلى التمسك بالجذور ضمانا للبقاء، وأخرى تراهن على الانفتاح على الآخر.

عملت العديد من الروايات العربية على احتواء هذا الموضوع واستيعاب تفاصيله منها رواية "**بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**" إذ حمل الروائي "**محمد برادة**" السرد مهمة البسط في هذا الموضوع الشائك من خلال شخصياته الروائية التي تحيلنا من خلال الكشف عن دواخلها إلى تلك الأماكن المعتمة داخل النفس الإنسانية وما تعلق منها بموضوع الهوية والصراع الداخلي بين التماهي مع تجربة حضارية مغايرة من جهة والتشبث بالمنبت والجذور من جهة أخرى.

- **الكلمات المفتاحية:** الهوية، الرواية، ما بعد الكولونيالية، الأنا، الآخر.

مقدمـــــــــة:

إنَّ اشتغال الخطابات المتصلة بالهوية ونشاطها وكذا احتدام القول فيها غذاه ذلك الصراع بين الشرق والغرب وما تبعه من حملات استعمارية تسعى لتصفية الآخر ومحوه حضاريا وثقافيا، إذ صار يعيش في عالم من الاستيلاء أجج هاجس التمسك بالهوية والذود عنها خوفا من الآخر.

فالعلاقة بين الشرق والغرب لطالما كانت علاقة تعارض وصراع يسعى فيها الآخر للإطاحة بالذات في غياب إمكانيات الحوار والتفاهم لأنَّ القاعدة التي غالبا ما تحكم هذه العلاقة هي قاعدة غالب ومغلوب.

إذن فإشكالية الهوية وتداعياتها وكذا إفرازاتها تعيد النظر في ذلك الترابط بين التجربة الاستعمارية وما بعدها منطلقة من أسئلة الراهن المتصلة بآثار الاستعمار الباقية وعودته المتجددة والتبعية له التي تلوح دائما في الأفق حاملة شعارات التهديد والتخويف ليصبح مطلب إثبات الهوية عبر التاريخ مطلبا طبيعيا.

لذلك فإنَّه في ظل هذه الظروف ينشط خطاب الهوية ويطفو إلى السطح كلَّما حدث اهتزاز في الكيان العربي وهي الإشكالية التي احتضنتها العديد من فروع البحث الإنسانية كعلم الاجتماع والانثروبولوجيا، وقد كان للأدب نصيب منها إذ ناقشتها العديد من الأعمال الروائية، ركزنا في هذه الورقة البحثية على إحداها وهي رواية **"قريبا من الضوضاء بعيدا عن السكات" "لمحمد برادة".**

1. الهوية: قراءة في المفهوم والتشكل:

إنَّ وضع مفهوم دقيق للهوية صعب؛ لأنَّها من أكثر الموضوعات تعقيدا لارتباطها بمجالات معرفية عدَّة مثل الأنثروبولوجيا، علم النفس الأدب، الفلسفة، علم الاجتماع السياسة وغيرها، ولعلَّ انشغال هذه المجالات المعرفية بقضايا الذات هو ما جعل مسألة الهوية تتسلل إليها بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة الحضور ومختلفة التجلي وزوايا النظر. ففي ظل ذلك الصراع بين الأنا والآخر يبرز سؤال الهوية

مركزيا يفرض ذاته في مجالات عدَّة حتى أنَّها أصبحت **<<مصطلحا إجرائيا في التداول السياسي والديني والإيديولوجي والثقافي، أي بدأ العرب يقرؤون تعبيرات عدة مثل: الهوية العربية، الهوية الإسلامية الهوية القومية، الهوية الإيديولوجية ثم الهوية الليبرالية والهوية الماركسية ومن ثم الهويات الجهوية كالهوية الطائفية والهوية العرقية والهوية الجنسية و الهوية الوطنية... وها نحن بإزاء تعريفات لا نهائية لهويات تتولد كل يوم، وفي هذا الخضم بات أمر الهوية أمرًا حيويًا وفاعلا في الثقافات والحضارات خصوصًا في مراحل الصدام والتصادم والتواحد والاندماج، مراحل تقارب الثقافات وتباعدها>>**[1].

تبدو الهوية مما سبق ذكره هويات إلاَّ أنَّ "**الشريف الجرجاني**" يذهب إلى القول إنَّها **<<عند بعضهم هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق>>**[2].

والهوية في أبسط تعريفاتها هي **<<السمات المميزة لذات ما، وعادة ما ترتبط بمفهوم متعال Transcendantal بمعنى أنها تعتبر روحا مطلقة وثابتة وسابقة على تحقّقها في أفراد يحملون هذه الهوية، ووفقا لهذه النظرة بالذات يصبح الأدب هو الوسيلة التي يتم بها تمثيل هذه الروح وتمثلها Médiation بشكل عيني>>**[3].

إنَّ تشكل هوية الأفراد وإحساسهم بها كانتماء اثني عرقي لا يتشكل دفعة واحدة وإنَّما يتدرّج في النمو والتشكل مع التطورات الحياتية للفرد ابتداءً من مرحلة الطفولة لتتضح صورة هذه الهوية وتدرك بشكل سوي في مرحلة الشباب بنمو المدركات الشخصية للفرد بنفسه وبعالمه الخارجي. فيبدأ الإحساس بالانتماء إلى جماعة معينة دون سواها يتنامى ويتعدى الأمر مجرد الإحساس إذ ينبري للدفاع عن الهوية

الجماعية فمن **<<الأمور البديهية عند علماء الاجتماع أن الهويات الاجتماعية تصنع وتتشكل بواسطة الناس أنفسهم، وأنها أمر مكتسب ويجتهد في الحصول عليها، وأن الهوية تنتج ويُعاد إنتاجها من خلال التفاعل الاجتماعي>>**[4]. هذا التفاعل يجعل الهوية الفردية بأشد خصوصياتها تتماهى مع الهوية الاجتماعية التي تخص مجموعة الأفراد التي ينتمي إليها ذلك الفرد فيتشكل ما يعرف بـ "الهوية القومية" وهي **<<مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العاملة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عمن سواهم من أفراد الأمم الأخرى>>**.[5] ويذهب بعض الباحثين للربط بين مفهوم الهوية والقومية ذلك أن **<<مفهوم هوية مجتمع ما متصل إلى حد كبير بما يسمى بمصطلح شائع أكثر هو القوميات، وهو مفهوم حديث نسبيا ومرتبط أساسا بتميز القوميات في القرن التاسع عشر>>**.[6]

لا يمكن الحديث عن مفهوم الهوية دون العودة إلى مفهوم الاختلاف لما بينهما من تشابك ذلك أن هوية الأنا تتحدد باختلافها عن الآخر أمَّا حسب جاك دريدا فالاختلاف **<<لا يرضى ولا يسعى إلى أن يتم الاعتراف به بوصفه نقيضا للهوية لأن الهوية والاختلاف بوصفه نقيضا لها هما واحد في مفهوم دريدا، لأنهما معا من نتاج العقل ويحملان النوع العقلي ذاته، لذا فإن هناك (اختلافا) لهما ومعهما أيضا، إن الاختلاف ليس آخرًا للهوية بل هو آخر العقل المساوي بآخريته لكامل تاريخ حضور العقل وحجمه الواسع، لذا فليس بمستطاع الاختلاف أن يستحضر بذات الطريقة المصغرة التي تستحضر خلالها الهوية الاختلاف داخل العقل نفسه من أجل التناقض معه>>**.[7] إذا فالهوية والاختلاف هما وجهان لعملة واحدة **<<فالهوية لا تنفك إذًا عن المغايرة ولا يتعين المثل من دون المختلف، بل كل مثل**

هو ذاته وغيره في آن، كل مثل هو واحد ومنقسم، هكذا يتسلل الاختلاف إلى مملكة الذات وتصبح المغايرة مقوما من مقومات الهوية و يقبع الآخر في صميم الأنا>>.[8]

تحتاج الأنا للكشف عن ذاتها إلى الآخر المختلف، فالأنا ووجودها يتحققان من خلال وجود الآخر المختلف عنها الذي تسعى دوما إلى مواجهته والعكس صحيح **<<وإذا كانت مشكلة الهوية بما هي توكيد على التمايز عن الآخر وبما هي مطالبة بحق الاختلاف تطبع عصرنا الحالي، فإن الاختلاف إشكالية تطرح نفسها على كل ثقافة وهو واقع يخترق كل اجتماع بشري، إذ لا مجتمع يخلو في الأصل من تنوّع و تعدّد، ولا أمة تعرى من انقسام وفرقة، ولا اعتقاد يبرأ من شك و مخالفة، ففي البدء كان الاختلاف والتفاوت، وعندما نقول في البدء نعني أن الطبيعة ذاتها هي التي تملي الفرق والاختلاف وأما التماثل والائتلاف والتوحد فكل ذلك هو من صناعة العقل وثمرة الثقافة، ونتاج المفهوم...>>.** [9]

وقد أوضحت بعض الدراسات والتوجهات الفكرية بأنَّ **<<الهوية ليست واحدة، وأن كل طرف ملتقٍ في جوانيته بالآخر دومًا، فحتى لأن كان كل طرف مهتما بنفسه ومنكبا على مشكلاته المخصوصة، فليس بإمكانه أن يتغلب عليها إلا إذا أولى في الوقت نفسه اهتماما لمشكل الآخر>>.**[10] فحضور الآخر ضرورة لابد منها لنتعرف على الذات وفهمها،

2. هاجس الانحباس الهوياتي في رواية "بعيدا من الضوضاء، قريبا من السُكات" لمحمد برادة:

يعمد الروائي "**محمد برادة**" في روايته "**بعيدا من الضوضاء، قريبا من السُكات**" إلى استثمار استراتيجية سردية نادرة تعلن عن تميّزه وفرادة الإبداع لديه، إذ يشيد صرحًا روائيا داخل النص الروائي الأساسي، فينقل قارئه إلى عالم روائي ينأى به عن المألوف.

إذ تقوم الشخصية الأساسية في النص وهو "**الراجحي**" بمساعدة المؤرخ "**الرحماني**" لتحضير كتاب عن تاريخ المغرب الحديث فكانت مهمته هي تجميع مادة يعتمدها الشيخ المؤرخ في التحليل والبرهنة والمقارنة، ولأنَّ وضعيته الصحية لا تسمح بالتدوين فقد استعان بالراجي لجمع شهادة الفاعلين **<<مستهديا بأسئلة ثلاث تطرحها على من تستفتيهم:**

1- ماذا تعني مقاومة الاستعمار وما الذي كنت تنتظره من الاستقلال؟

2- كيف ترى أن الأزمنة تعبر عن نفسها الآن من خلال الواقع اليومي؟

3- هل نتوفر على الشروط الضرورية للانخراط في الألفية الثالثة؟>>[11].

هذه المهمة أوحت له بكتابة نص روائي مستندا إلى مخزونه من قراءات روائية كان يهرب إليها من يومياته كشاب أرهقت البطالة كاهله ويحتمي بها من واقع جعل العاطلين عن العمل يلجؤون أحيانا إلى الانتحار أو الإضراب عن الطعام أو غيرها من طرائق الاحتجاج. مستوحيا مادته من حواراته مع شخصيات كانت أعمدة شيد على أساسها نصه الروائي.

ثلاث شخصيات رئيسية مثلت ركائز قام عليها النص الروائي هي: "**توفيق الصادقي**" "**فالح الحمزاوي**"، "**نبيهة سمعان**"، يعرض الروائي سير حياتها مستبطنا دواخلها محاورًا علاقاتها مناقشا معها آراءها السياسية في عرض يبدو فيه الوجه والقفا. عرض ومناقشات واستبطان يطفح بالحضور التاريخي، فرواية "**محمد برادة**" **<<تضعنا في صلب هذه الإشكالية وفي مواجهة أزمنة إعادة (تدوين) التاريخ السياسي والاجتماعي والتعرف على أنساقه المضمرة من خلال السرد، وعبر الكيفية التي ينظر من خلال مرقابها الروائي إلى العلاقة ما بين التاريخ بثقل أحداثه ووقائعه وصراعاته، وبين السرد بوصفه (لعبة مقترحة) لقراءة هذا التاريخ، وإخضاع الكثير من سرائره إلى موجهات القراءة>>**[12].

وما زاد النص ملامسة للواقع واقترابا من الطرح التاريخي هو تلك الإحالات المختلفة على المكان والزمان والناس والتقاليد والثقافة بجوانبها المادية والروحية، وكأنَّ الروائي لا يسعى إلى سرد حكايات شخصياته فحسب وإنَّما التعْريف بما يحيط بها عبر استعراض مشاهد معينة من قبيل سهرات "**أم توفيق الصادقي**" وليالي الذِكرْ والمدائح النبوية التي تقيمها في البيت الذي ورثته عن أبيها وقد خصصته لإحياء المناسبات الدينية وإطعام الفقراء والصدح باسم الله. طقوس وشعائر صارت تحكم حياة أم الصادق التي تحرص على المحافظة عليها كامرأة ذات وقار تحافظ على العادات والتقاليد.

وللهويّة حضورها الواسع في هذا المتن الروائي كونها موضوعًا يطرح بالقوة الاضطرارية مرافقا لموضوع الاستعمار وتبعاته، إذ لا يكاد يطرح أحدهما حتى يتبدى الآخر سؤالا يلوح فارضا ذاته، لأنَّ المواجهة بينهما أزلية والصراع بينهما دائم، فأول ما تهدف القوة الاستعمارية إلى ضربه هو مقومات الهوية التي شوهها الوجود الاستعماري الغاشم في دول المغرب العربي، ولئن كانت الجزائر خير مثال على ذلك فإن نظيراتها من الدول لا تنأى عن ذلك الوضع رغم اختلاف طبيعة العلاقة بين الدولة المستعمَرة والمستعمِرة (استعمار، حماية، انتداب...).

من هذا المنطلق قصد "**محمد برادة**" إلى طيات هذا الموضوع يقلب فيه ليبحث ويكشف عما يمكن البحث فيه وكشفه، وقد ولج الروائي الموضوع من خلال طرح مسألة الهوية عند جيل من الشباب عايش فترة الاستعمار وآخر مسته تركاته بعد انقضاء عهده وسنحاول مناقشة الموضوع من خلال هذه الشخصيات وعلاقتها بالآخر (فرنسا) من حيث الانفتاح والانغلاق، القبول والرفض الخوف والاطمئنان، التسامح والضغينة. لأن موضوع الهوية لا ينأى عن هذه الطروحات التي تمثل بشكل أو بآخر صُلب موضوع الهوية لأنَّ هوية الذات لا تتحدد إلا بالآخر.

1.2 الانفتاح الهوياتي مطلبا طبيعيا

سنبدأ بشخصية "**توفيق الصادقي**" الذي وصفه الروائي بالمخضرم الطموح (1931) وهو شاب مغربي، ابن "**القايد الصادقي**" أحد المقربين من السلطة الحاكمة الفرنسية بعد أن نال شهادة البكالوريا وكان من المفروض أن يسافر إلى فرنسا ليتم تعليمه الجامعي و**<<يصبح ضمن النخبة التي حرصت إدارة الحماية على اصطفائها من بين "أبناء الأعيان" المهيئين لاستيعاب الثقافة وقيم الحضارة الفرنسية والاضطلاع بتحديث المغرب وفق برنامج التمدين والتصنيع المستجيب لحاجيات الميتروبول في استثمار إمكانات المستعمرات>>**[13].

حلم تحول في لحظة إلى سراب فبعد وفاة والده الذي لم يكن في الحسبان أصبح لزاما عليه أن يتحمل مسؤولية العائلة لأنَّ أمه وإخوته أصبحوا في عهدته باعتباره الابن الأكبر لأبيه إذ يجد نفسه مكبلا بمسؤوليات تثنيه عن عزمه وهو الذي كان عندما كان أبوه على قيد الحياة **<<مشدودًا تماما إلى الأفق الجديد الذي انفتح أمامه منذ دخل الليسية الفرنسي وتشبع بنموذج للعيش مخالف لما ألفه منذ طفولته، يعتبر نفسه محظوظًا بأن يكون ضمن قلة هي على الطريق لاكتساب شهادات تجعل منها نخبة متعلمة تتولى تدبير شؤون البلاد ومد الجسور مع حضارة مبهرة إشعاعاتها تخلب الألباب يوما بعد يوم، وأطيافها تتخايل لأذهان شبان المغرب المتعلمين الذين يشعرون أنهم منذرون لتجديد مجتمعهم وانتشاله من إهاب التقاليد العتيقة التي مهدت الطريق أمام دخول الحماية الفرنسية>>**[14].

إنَّ الرحلة إلى فرنسا التي حلم بها "**توفيق الصادقي**" كغيره من شباب الدول العربية **<<هي رحلة من**

الذات نحو الآخر من الشرق إلى الغرب، من عالم الناس فيه مضطهدون وخائفون وتائهون إلى عالم آخر أكثر اطمئنانا واحتضانا، وهي أيضا رحلة من داخل الذات العربية المجروحة والمطعونة في كرامتها إلى خارج تتقصده نفيا وهجرة واضطرارًا، وعلى هذا الأساس تغدو رحلات الشخصيات وتنقلاتها فرصة لاكتشاف الذات من جهة، واكتشاف الآخر من جهة أخرى>>[15].

يبدو "**توفيق الصادقي**" نموذجا من فئة الشباب العربي عموما والمغربي خصوصا الذي يعيش على وقع صراع داخلي بين التمسك بالأصالة والانفتاح على الآخر، إذ تتنازعه مشاعر متضاربة تتوزع بين الإقبال والتعطش إلى ما تحمله اللغة الفرنسية وأبناؤها من أساليب عيش مختلفة، مشاعر تدفع به إلى الإعجاب بتاريخ فرنسا في القرن الثامن عشر ذلك التاريخ الذي يحفل بأفكار الفلاسفة وجرأة الروائيين، ويقدم نماذج بشرية من النساء والرجال كانوا نموذجا للرقي والتحضر، كل ذلك دفع به إلى التساؤل عن تناقض عجز هو عن فهمه، كيف لبلد بهذا التاريخ وهذه الثقافة أن يستبيح أبناؤه وأن يستعمروا بلادًا أخرى يتصرفون فيها بجبروت وعنجهية واستغلال، مع ذلك يتقبل توفيق الصادقي أنَّ فرنسا هي المنارة التي ستخلص بلاده من براثن القرون الوسطى وتدفعها لاستقبال أنوار القرن العشرين وفي المقابل يبدو **توفيق الصادقي** مستجيبا بعفوية إلى مظاهر الحياة الموروثة التي تدفئه بروحانيتها الجماعية المؤنسة. **<<على رغم محيطي العائلي، أحسني أقرب إلى السلوك البراجماتي الذي تشربت بعض مبادئه من المدرسة الفرنسية، أعتبر تجربتي مع مدير الضرائب ثم تدريبي مع المحامي خلال فترة الحماية الفرنسية ذخيرة ثرت تمدني بقدرة على المؤالفة بين الموروث والمكتسب، أو هكذا يخيل إليّ، أستشعر حرصا على الموازنة بين الثقافة العربية والأجنبية>>[16].**

إنَّ هذه الثنائية التي عنونت حياة توفيق الصادقي وشخصيته وانتماءه جعلته يعتبر نفسه محظوظًا بتفاعله مع حضارة الآخر واستكشافه لثقافته القومية وحرصه على الانتماء للعصر. إن هذا الصراع الداخلي يؤجج سؤال الهوية إذ يجد الفرد نفسه عاجزًا عن تحديد انتمائه ومن ثمة هويته.

ولعل الحوار التالي الذي دار بين "**توفيق الصادقي**" وبين الأستاذ "**كلود**" يوم عودة الملك وأسرته إلى المغرب فيما تُتَابع المفاوضات مع فرنسا للتوقيع على وثيقة الاستقلال اليوم التاريخي المليء بالحماس والفرح الذي أيقظ مشاعر القلق والخوف في نفس توفيق الصادقي **<<"أنت مغربي ولا شك، لكنك في الآن نفسه من الذين أصبحوا على تماس مستمر مع هويات أخرى بحكم ثقافتك وطموحك المعرفي والمهني...إنه يمهد لتغيير الهوية الموروثة باتجاه أخرى ما تزال قيد التشكل...>>**[17].

إنَّ خيار التمدرس في المدارس الفرنسية والانفتاح على ثقافة الآخر لم يكن حكرًا على الأب توفيق الصادقي، بل إنَّه كان حريصا على أن يضع ولديه على ذات الدرب على اعتبار أنَّه الأفضل لشخصيتهما ومستقبلهما وإيمانًا منه بأفضلية المدارس الفرنسية على المدارس الحكومية.

أما شقيق "**توفيق الصادقي**" المدعو "**علي**" فهو صاحب مواقف مخالفة لمواقف أخيه توفيق تُجاه ما يحدث في البلاد، وتُجاه مواقف العباد من هذه الأحداث، فرؤيته للأمور مختلفة وهذا الاختلاف نابع من قناعاته التي قادته لمشادات كلامية دائمة مع أخيه توفيق، فهو يتحين الفرص دائما لينتقد موقفه المتذبذب على حد تعبيره ويتهمه بانشغاله بمهنته المربحة واغتنام فرصة انسحاب المحامي الفرنسي ليحتل مكانه **<<لا يزعجك أن يسترجع المخزن سطوته وسلطته المطلقة ليعيدنا إلى الحجر الذي خضع له المغرب قبل عصر الحماية، أنت تتناسى من فرّط باستقلالنا وسهَّل دخول المستعمر الأجنبي...>>** [18].

وقد بلغ به المقام أن اتهم أباه القايد الصادقي بالخيانة بينما كان يرى فيه توفيق خادما لمصالح الناس متعاطفا، متفاهما...الخ، وقد انتهى به المطاف في الوقت الذي اعتقلت فيه مجموعة كبيرة من مناضلي اليسار المهتمين بتدبير انقلاب مسلح أن يضطر إلى مغادرة البلاد، وتحديدا إلى فرنسا التي عاش فيها عشرين سنة كانت كفيلة بتغيير شكله وأفكاره لأنَّه حسب اعترافه أنَّ سنه اليافعة ساعة انخراطه في مشروع الانقلاب الثوري لم تسمح له بإدراك بقية مكونات الطبائع البشرية، فعشرون سنة في المنفى جعلته يتأقلم مع وضعية الثائر المنهزم أو المناضل الذي أخطأ السبيل فقرر الانتماء من جديد إلى الحاضر وسجل في كلية لإعداد إجازة في التاريخ و من ثمة البحث عن عمل ضمانا للاستقلال المادي.

إنَّ هذه المعطيات الجديدة التي صبغت حياة "علي الصادقي" ولونت أفكاره ومجريات أحداث حياته تثير أسئلة الهوية والانتماء والاختلاف، فهذا المناضل اليساري المعارض أجبرته الظروف على أن يعيش في كنف البلد الذي استعمر وطنه واستحل حرمته، بل وأن يتقبله وينتمي إليه بعد أن وجد نفسه متماسا مع حضارة شامخة شهد لها بالشموخ رغم كل النوايا والأطماع الاستعمارية التي ينطوي عليها وبذلك أدرك أن للتاريخ أكثر من وجه **<<تبدو لي فرنسا حاضنة كل الأسئلة التي قد تخامر شعوبا تتطلع إلى توازنات معقولة ....أحيانا أقول مع نفسي إن هذا التماهي مع تجربة مغايرة لتلك التي يعيشها شعبي قد تبعدني عن هويتي وانتمائي وتحيلني إلى مجرد صدى، غير أنني أستشف على مر الأيام أن الهوية المنغلقة أو المحددة سقفها، لم تعد فاعلة في مجرى حيوات الأفراد والشعوب...>>**[19].

تطرح شخصية "**فدوى**" ابنة "**توفيق الصادقي**" أيضا موضوع الهوية وهي الشابة التي عادت من باريس متفوقة في دراستها وفي اليوم الذي أقامت فيه العائلة حفلة اجتمع فيها الأهل والأصدقاء للتهنئة بنجاحها، تصدم فدوى والدها وتصارحه بأنَّها تعرفت على رجل حياتها واسمه "ميشيل" وهو يدرس معها

في الاختصاص نفسه وأنَّ سعادتها لن تكون إلا مع هذا الرجل. مفاجأة صدمت الأب توفيق ففقد اتزانه وكيفية التصرف إلا أنَّ الأمر انتهى به إلى أن تمالك نفسه وطلب منها مهلة للتفكير بعد أن **<<استعاد ملامح فدوى مقترنة بشخصيتها القوية وذكائها اللامع، وتذكر اكتشافه لهذه الجوانب المميزة أثناء ترافقهما في رحلة باريس، تتحدث بهدوء مراعية الدقة في تعبيرها، ممتلكة لخلفية معرفية أدهشته، ومتحيزة لعالم اليوم وتطلعاته المستقبلية، ولا تخفي أنها تعرف ما تريد>>**[20].

لكن رغم ذلك ظل التخوف سيد الموقف إذ كيف يتقبل ببساطة ارتباط ابنته برجل لا ينتمي إلى دينها لكن بعد تفكير عميق وتدبر طويل قرر الأب استدعاء العريس وعائلته لزيادة فرص التعرف عليهم قبل أن تعقد المصاهرة طبعا مع شرط أن يعلن العريس إسلامه. وبدأ توفيق الصادقي يبهر ضيوفه بمختلف المأكولات المغربية والسهرات والهدايا **<<غادي نوريهم شكون هي عائلة الأستاذ الصادقي وواش تتسوى. وكيف هي أصول الضيافة والكرم في المغرب>>**[21]. بعد ستة أيام غادر الضيوف المغرب ليتفاجأ أبو العروس برسالة من أبي العريس هزت كيانه وحطمت كبرياءه إذ تحول هذا الكرم وحسن الضيافة في نظر الضيف إلى إحساس بالمهانة وتحولت الحفاوة البالغة إلى إحساس بالجَلْدِ لأن الضيف وجد نفسه مضطرًا للابتسام وإظهار الإعجاب بالولائم الألف ليلية التي تفنن الأستاذ توفيق الصادقي في إعدادها، وهذان المقطعان من الرسالة يوضحان بجلاء نظرة الاحتقار التي رحل الضيف وهو محمل بها عن الأستاذ الصادقي وعاداته وثقافته وشخصيته. **<<ما حيرني في العمق هو أنك درست في مدارسنا وجامعاتنا، وزرت باريس الأنوار وتتابع بدأب أخبار بلادنا وما يجري في العالم الذي لا ينفك عن التحول >>**[22].

تبدو الصورة في هذا الموقف صدامية بين الأنا والآخر ففي الوقت الذي تكون فيه الأنا منفتحة على الآخر، متقلبة، متماهية معه، يصدر الآخر عن موقف معادٍ رافض إقصائي. **<< أدرك كنه علاقتهما النابتة على أطراف تناقضات تنتصب في وجه عواطف شابة تنتمي إلى شساعة الحياة وترفض أن تنغرس في خانات مسبقة سطّرتها التقاليد والأعراق والأديان>>**[23].

2.2 الهوية والبعد السياسي:

أمَّا الشخصية الرابعة التي كانت لها نقاط تماس مع قضية الهوية هي شخصية "**فالح الحمزاوي**" الذي عنون له الراوي **بـ** "**1956 دُرْ مع الزمان**" وقد استلم زمام الأمور في مكتب المحاماة الذي كان المحامي توفيق الصادقي سلطانا على عرشه والذي اكتفى فيما بعد بإطلالات عابرة في أغلب الأحيان وفي بعض الأحيان بمشاركته الفعلية كلما تعلق الأمر بقضية مهمة تستدعي خبرته وعلاقاته، وقد كان لقاؤه مع الراجي في مكتب الأستاذ توفيق أثناء فترة التدريب ثم توطدت العلاقة وزاد التعارف عندما سطع نجمه كمحام ماهر ومتحدث بارع في صالون الدكتورة نبيهة سمعان التي سيأتي الحديث عنها لاحقا.

يبدو "**فالح الحمزاوي**" مثالا للشخصية المغربية المتعطشة للتحرر في كل المجالات، لكنه في كل مرة يتعثر أمام مسائل اجتماعية تعيق فاعلية التحرر وتقف حائلا دونه **<<فاتحت صديقي حفيظ في الحيرة التي تستبد بي فأجابني بأنني لست الوحيد الممزق لأن المحيط الذي نعيش فيه تبتلعه تقاليد ماضوية، وقوة الدفع باتجاه التحرر المتكامل ضئيلة، من ثم تجليات هذه الشيزوفرينية الموروثة>>**[24].

وليس "**فالح الحمزاوي**" مجرد محام بل ناشط سياسي ومدافع عن الناشطين السياسيين المقهورين من بينهم صديقه حفيظ السدراتي الذي تم اعتقاله نتيجة نشاطه السياسي وآرائه المعارضة، اعتقال حال دون مواصلة نشاطه والمشاركة في المؤتمر الرابع الذي يحاول أعضاؤه تحسين مستقبل البلاد

<<والمجتمع المغربي السائر بخطوات حثيثة نحو الباب المسدود نتيجة لهذه السياسة التي تكرس غنى الأثرياء، ولا تقدم شيئا لفئات المستضعفين>>[25]. وقد حمل حفيظ السدراتي صديقه فالح الحمزاوي رسالة تعوض غيابه عن المؤتمر ناقش فيها بعض القضايا والآراء والأفكار وطرح قضية الهوية السياسية **<<أعتذر عن هذا الاندفاع في طرح مسألة هوية الحزب، لكن خلوة السجن شجعتني على صياغة وجهة نظري هذه صياغة مستعجلة قد يقابلها الكثيرون بالاستنكار>>**[26].

إنَّ الأوضاع التي عاشها المغرب في هذه الفترة التاريخية الحرجة من حياته جعل حضور مسألة الهوية السياسية اضطراريا، وضرورة لابد منها في ظل ظروف تتنازعها قوى متعارضة، بل إنَّ التعارض بينها وصل إلى حد رغبة كل طرف في الاستبداد بالآخر.

لقد وضعت الأحداث السياسية والصراعات الإيديولوجية في المغرب الهوية السياسية أو غير السياسية في موقف حرج جعل تبين ملامحها وإدراك ماهيتها والإحاطة بحدودها أمر صعب المنال وهذا ما كان عليه حال فالح الحمزاوي الذي أخذته متاهة الانتماء إلى أقصى حدود القلق الوجودي اللامتناهي **<<لا أستطيع أن أعلق نضالي أو انتمائي في انتظار أن تتضح معالم الصورة، أحسني ناقصا من دون سمة الانتماء المعلقة على جبيني والتي تمنحني جزءًا من هويتي المختلطة المعالم، لعل فرديتي الجامحة تحتاج إلى هذا الارتباط الغيري المستجيب لمشاعر تخلقت بأعماقي منذ الطفولة الباكرة>>**[27].

3.2 الجموح الهوياتي الأمثوي

أمَّا "شخصية "**نبيهة سمعان**" التي عنون لها الروائي "الراجي" بـ "**نبيهة سمعان 1956 زمن لا يلغي الحلم**" فقد كانت الشخصية الأنثوية التي فتش عنها الراجحي لتضيء له الفترة التي أراد أن يسلط عليها الضوء في إطار مشروع الأستاذ الرحماني، وهي امرأة ذات حضور اجتماعي وفكري وثقافي، طبيبة

نفسانية وصاحبة صالون فكري واجتماعي يطرح موضوعات شائكة ترمي من ورائها إلى أن **<<تمتزج الأصوات بين رجال ونساء. وأن تنشأ تقاليد التبادل والندية، ونتعود على التفكير بصوت مرتفع، والجهر بآرائنا في السلوك والسياسة والظاهرات الاجتماعية، وأنت تعلم أن الأحزاب لم تعد تسهم في جعل الحوار الفكري والثقافي جزءًا من نشاطها، بل تحولت إلى ماكينات و أجهزة لتهيئ الانتخابات>>**[28].

إنَّ نظرة الانبهار بالحضارة الغربية التي تمتلكها "**نبيهة سمعان**" وتحديدا بفرنسا لا تنأى عن نظرة أبناء جيلها، فالافتتان بفضائها المسكون بالفكر والفن والأدب وفتنة النساء الأنيقات وسحر الرجال جعلها تتمظهر في أذهانهم على أنَّها نموذج الحضارة الراقية وتظهر بصورة مثالية نورانية. وقد أقرت هذه الشخصية بأنها تستمد قوتها وشجاعتها وصمودها من قراءاتها لسير نساء نموذجيات اقترنت أسماؤهن بالجرأة والتغيير **(جورج صاند – كوليت ويلي – لويز ميشال، كاميي كلوديل)**. وهو ما تفتقر إليه نساء بلادها والعالم العربي ذوات الحضور المحتشم وقد مثلت "**بدرية شفيق**" التي درست في باريس وحملت لواء الدفاع عن حقوق المرأة المصرية إحدى النساء العربيات التي نالت إعجابها.

إنَّ هذه المفارقة التي أدركت "**نبيهة سمعان**" حدودها جعلتها تعيش حالة من الغربة تجاه هذا الواقع وهذا الاختلاف **<<كثيرا ما تداهمني الغربة لأنني أشعر أنني لا أنتمي إلى اختيار ثقافي/مهني يتخطى الحدود ويعانق أفقا للمعرفة يعتبر أفقا كونيا، ولهذا أجدني في حالة بحث دائم عن هوية مستعصية. منفلتة، لا تكاد تستقر عند بر، في الآن نفسه أحس بانجراف نحو تلك الأبعاد الواضحة والغامضة في آن، التي تربطني بالمجتمع الذي نسجت ذاكرة طفولتي بين ربوعه الغربة من هذه الزاوية مساءلة مستمرة لأفق وجودي، معرفي لا أملكو سائل تسعفني على فك ألغازه فأغدو تائهة، مغتربة في شعابه>>**[29].

إنَّ "**نبيهة سمعان**" تؤمن بضرورة الانفتاح على الآخر ثقافة وفكرا ولغة ومعرفة جعلها تسعى للانفلات مما تسميه هي بـ "**الانحباس الهوياتي**" الذي يجعل الذات رهينة العادات والتقاليد الموروثة التي ترمي عليها بثقلها، وتثقل كاهلها بعوائق متغلغلة في المجتمع وسلوكاته، مجتمع يعتد بالسلطة الذكورية ويكرس دونية المرأة، هذا ما جعلها وهي الشابةُ التي تعيش في المغرب تحيا محملة بأفكار وأحلام تسعى لتحقيقها في فرنسا التي كانت ترى فيها الخلاص والحلم الموعود. **<<قبل كل شيء أصارحك أنني منذ المراهقة كان لدي رفض جارف لـ"الانحباس الهوياتي" كما يمكن أن أعبر عنه بلغة اليوم، كان أبي موسرًا وأمي متعلمة، عصرية، مرتاحة داخل جلدها، وحين اكتشفت العوالم التي تفتح نوافذها اللغة الفرنسية، استولت علي رغبة جنونية في أن أصير غيري، ليس مجرد تقليد طرائق عيش الأجانب بل الرغبة في أن أكسر الحواجز وأوهم النفس أنني انتمي إلى شساعة الدنيا وأحلق في الأجواء اللامحدودة التي تتخايل لي.>>**[30].

بهذا الطرح الذي ناقشناه من خلال شخصيات رواية "**بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**" يكون "**محمد برادة**" مؤسسا لنظرة إلى الآخر لا ترضى بالانحباس الهوياتي ولا ترتهن إلى المرجعية الدينية الثقافية الوطنية، وإنَّما تراهن على الاختلاف الثقافي وقبول الآخر رغم هذا الاختلاف لتشييد تجربة حضارية عامة وشاملة يتوجب التزود والانتهال من معينها إذ كانت كل الشخصيات التي تحدثنا عنها ترتضي الانفتاح المفرط على الآخر وترى في هذا الانفتاح ضرورة لابد منها لمعايشة هذا العصر رغم الموروث الحاضر بالقوة في حياة الشخصيات ووعيها الذي لا يفتأ يجرها إلى الضفة الأخرى.

الخاتمة

مما سبق نخلص إلى أنَّ الأوضاع التي يعيشها العالم المعاصر من اقتتال وتناحر وصراع أجج سؤال الهوية وجعلها تطفو على السطح في حضور متعدد وتمثلات متباينة بين حضور يروم تقويض فكرة الأحادية والتمركز، وآخر معنون بالتشظي كما هو حال هوية المهاجر الذي يجد نفسه مشدودا إلى هويته الأصلية من جهة ومحيرا لتبني هوية الآخر أو منجذبا إليها إراديا من جهة أخرى. ولجيل ما بعد الاستقلال الذي عايش فترة الاحتلال وفترة ما بعد الاستقلال حكاية أخرى مع الهوية إذ تجده معجبا بحضارة الآخر على أنَّها حضارة النور والتقدم والرقي والعلم والتطور والتكنولوجيا وفي الوقت ذاته لا يستطيع التنصل من هويته الأصلية التي تتسم بالروحانيات والقيم. هذا الحضور على تعدده واختلافه استطاعت الرواية العربية احتواءه فكان ذلك الخليط السحري بين الرواية والهوية وما بعد الكولونيالية في طرح فكري بصيغة جمالية.

قائمة المراجع:

الكتب:

1) أحمد نعمان: **الهوية الوطنية**، دار الأمة، الجزائر، 1996.

2) إدريس الخضراوي: **الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار**، دار رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، مصر، ط1، 2012.

3) حسين سليمان: **مضمرات النص والخطاب (دراسات في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي)**، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.

4) رسول محمد رسول: **محنة الهوية مسارات البناء وتحوّلات الرؤية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 2000.

5) سعد البازغي: **الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2008.

6) سعد الغراب: **العامل الديني والهوية التونسية**، الدار التونسية للنشر، 1990.

7) الشريف الجرجاني: **كتاب التعريفات**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، 1995.

8) عادل عبد الله: **التفكيكية – إرادة الاختلاف وسلطة العقل**، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000.

9) علي حرب: **نقد النص، المركز الثقافي العربي**، الدار البيضاء – المغرب، ط3، 2005.

10) محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء قريبا من السُكات**، دار الآداب، بيروت، ط1، 2014.

11) منذر الكيلاني: **الاستشراق والاستغراب: اختراع الآخر في الخطاب الأنثروبولوجي (صورة الآخر ناظرا ومنظورًا إليه)**.

12) منير غسان وآخرون: **الهوية الوطنية والمجتمع العلمي والإعلام (دراسات في إجراءات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية)**، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2002.

المجـــــلات:

1) وليد الخشاب: **الإفلات من مؤسسات الهوية والثقافة**، مجلة "أ"، العدد 2000/20.

المواقع الإلكتروني:

1) على حسن الفواز: **محمد برادة التاريخ بوصفه سردًا**، من الضوضاء إلى السُكات .www almadapaper.net

الهوامش

[1]– رسول محمد رسول: **محنة الهوية مسارات البناء وتحوّلات الرؤية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 2000، ص ص 24، 25.

[2]– الشريف الجرجاني: **كتاب التعريفات**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، 1995، ص 257.

[3]– وليد الخشاب: **الإفلات من مؤسسات الهوية والثقافة**، مجلة "أ"، العدد 2000/20، ص 54.

[4]– منير غسان وآخرون: **الهوية الوطنية والمجتمع العلمي والإعلام (دراسات في إجراءات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية)**، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2002، ص 104.

[5]– أحمد نعمان: **الهوية الوطنية**، دار الأمة، الجزائر، 1996، ص 23.

[6]– سعد الغراب: **العامل الديني والهوية التونسية**، الدار التونسية للنشر، 1990، ص 12.

[7]– عادل عبد الله: **التفكيكية – إرادة الاختلاف وسلطة العقل**، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000، ص 18.

[8]– علي حرب: **نقد النص، المركز الثقافي العربي**، الدار البيضاء – المغرب، ط3، 2005، ص 29.

[9]– المرجع نفسه، ص 30.

[10]– منذر الكيلاني: **الاستشراق والاستغراب: اختراع الآخر في الخطاب الأنثروبولوجي (صورة الآخر ناظرا ومنظورًا إليه)**، ص 82.

[11]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السُكات**، دار الآداب، بيروت، ط1، 2014، ص 12.

[12]– على حسن الفواز: **محمد برادة التاريخ بوصفه سردًا**، من الضوضاء إلى السُكات .www almadapaper.net

[13]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء قريبا من السُكات**، ص 36.

[14]– المصدر نفسه، ص 38 – 39.

[15]– إدريس الخضراوي: **الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار**، ص 268.

[16]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص ص 71، 72.

[17]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص ص 61، 62.

[18]– المصدر نفسه، ص 85.

[19]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص 83.

[20]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص 92.

[21]– المصدر نفسه، ص 95.

[22]– المصدر نفسه، ص 99.

[23]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص ص 102، 103.

[24]– المصدر نفسه، ص 127.

[25]– المصدر نفسه، ص 130.

[26]– محمد برادة: بعيدا **من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص 133.

[27]– المصدر نفسه، ص 135.

[28]– محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص 208.

[29]–المصدر نفسه، ص 234.

[30]–محمد برادة: **بعيدا من الضوضاء، قريبا من السكات**، ص 178.